التقابل في سورة مريم

دراسة نصية

إعداد

م.د أنوار عزيز جليل الأسديّ

م.م زينة صاحب محمود

جامعة البصرة

كلية التربية للعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية

٢٠١٩م ١٤٤٠هـ

بِسمِ اللّهِ الرحمنِ الرَّحيمِ

﴿أُولئكَ الّذينَ أنعمَ اللّهُ عليهِم منَ النَّبيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادمَ ومِمَّنْ حملنَا مَعَ نُوحٍ ومِن ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ وإسرائيلَ ومِمَّن هدينَا واجتبينَا إذا تُتلى عليهِم آياتُ الرحمنِ خرُّوا سجَّداً وبُكيّاً– مريم:٥٨ ﴾

الإهداء

إلى: ﴿ ذِكرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيّاً- مريم:٢﴾

إلى: ﴿ واذْكُرْ فِي الكِتَابِ مَرْيَمَ إذِ انتَبَذَتْ مِن أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً- مريم: ١٦﴾

إلى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إبراهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِيقاً نَّبِيّاً- مريم: ٤١﴾

إلى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً- مريم: ٥١﴾

إلى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إَسْماعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً- مريم: ٥٤﴾

إلى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً- مريم: ٥٦﴾

أنوار

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد ذكر رحمة الله بنا، نحمده على ما أنعم به علينا، وبعد الصلاة على نبيه المصطفى أحمد، نذكر رحمة الله بآل بيت محمد.

أما بعد ـ حاول البحث أن يدرس سورة مريم دراسة نصية. وبما أن التقابل جزء من بنية النص كان عنوان البحث (التقابل في سورة مريم دراسة نصية).

إن الدراسة النصية أو المنهج النصي من المناهج أو الدراسات التي تستهوي الباحثين، لأنها تفتح آفاقاً واسعة، وتطلق العنان للباحث لكي يحلل النص من عدّة مستويات، فضلاً عن أنها تبحث في النص كُلّاً متكاملاً دون أي قطع أو تجزئة أو فصل.

وهذا ما حاول أن يقوم به البحث، الذي يتألف من عنوانين؛ الأول: التقابل لغة واصطلاحاً، مع التطرق إلى مفهوم الدراسة النصية. والثاني: تطبيقه على سورة مريم المباركة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه أجمعين أبي الزهراء محمد وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين.

التقابل لغة واصطلاحاً*

التقابل لغة: هو التلقاء والمواجهة والضم والمعارضة[١]، وكذلك **المقابلة والتقابل** فإنهما لا يخرجان عن المعنى اللغوي الثاني لمادة (ق.ب.ل)، وهو: المواجهة. جاء عن الجوهري (ت: ٣٩٣هـ) قوله: ((المقابلة: المواجهة والتقابل مثله))[٢].

أما اصطلاحاً: فقد كان يطلق عليه قدامة بن جعفر (ت: ٣٢٧هـ) في كتابه (نقد الشعر)، بـ (صحة المقابلة) ويعرفها بقوله: ((وهو أن يصنع الشاعر معاني يريد التوفيق بين بعضها وبعض و المخالفة، فيأتي في الموافق بما يوافق، وفي المخالف بما يخالف على الصحة، أو يشرط شروطاً ويعدد أحوالاً في أحد المعنيين، فيجب أن يأتي فيما يوافقه بمثل الذي شرطه وعدده، وفي ما يخالف بضد ذلك))[٣]. والملاحظ أن المعنى الاصطلاحي للتقابل يدور حول هذه المعاني جميعاً، بل لا يكاد ينفك عنها.

أما تعريف التقابل عند المحدثين، فيعرفه الدكتور أحمد نصيف الجنابي بقوله: ((تعني هذه الظاهرة [أي ظاهرة التقابل] وجود لفظين تحمل إحداهما عكس المعنى الذي تحمله الأخرى، مثل: الخير والشر، والنور والظلمة، والحب والكراهية))[٤]. إلا أنه من المؤاخذات على هذا الحدّ أو التعريف هو أن العكس بين الألفاظ نوع من أنواع المصاحبات المعجمية التي تربط بين الألفاظ المتقابلة، وهو ما يسمى في علم البديع بفن (العكس والتبديل)[٥].

من هنا يمكننا أن نضع تعريفاً آخر للتقابل وهو: المقابلة بين الألفاظ بأي علاقة كانت. فنترك القول في العلاقات التي تربط بين هذه الألفاظ، لأن علم الدراسات النصية توصل إلى حقيقة هي: أنّه لا يمكن حصر العلاقات التي تربط بين الألفاظ؛ لأنها مما لا نهاية لها، كما نلاحظ ذلك في تطبيقات الدكتور محمد بازي[٦]. وإن كان هذا التعريف هو

تعريف الشيء بلفظه نفسه؛ إلا أن تنوع العلاقات التي تربط بين الألفاظ المتقابلة التي مما لا يمكن حصرها قادت إلى هذا الحدِّ أو التعريف.

إن علم الدراسات النصية هو العلم الذي يهتم بوصف النص وتحليله، من جوانب عدة؛ أهمها: الترابط والتماسك[٧]، أو ما يسمى بالسبك والحبك، وهما من معايير النصية السبعة[٨] ـ كما حددهما (دي بيو جراند) و(درسلر) ـ لهما أثرهما في ترابط النص وتماسكه.

والسبك هو رصد العلاقات الدلالية الاستمرارية الحضورية المتحققة على مستوى الأبنية السطحية للنص، وهو على نوعين: السبك النحوي، ويشمل: (الإحالة، والاستبدال، والحذف، والربط اللفظي والمعنوي، والتحديد)، والسبك المعجمي، ويشمل: (علاقتي التكرار، والمصاحبة المعجمية). أما الحبك فهو رصد العلاقات الدلالية الاستمرارية الاستبدالية المتحققة على المستوى الداخلي للنص أو العلاقة الغيابية، أو علاقات المعنى المنطقية، كعلاقة السببية والعموم والخصوص، وغيرها كثير. وما يؤديه هذان المعياران من شد لأجزاء النص بعلاقاته اللغوية والمنطقية[٩].

يعرف أولمان المصاحبة المعجمية بأنها: ((الارتباط الاعتيادي لكلمة ما في لغة ما بكلمات أخرى معينة ... ومن أمثلة ذلك ارتباط كلمة منصهر مع مجموعة الكلمات: حديد، نحاس، ذهب، فضة))[١٠]، أو((هو المعنى الذي يقدمه المعجم للاسماء والأفعال شرحاً لدلالتها مستفيداً من كل ما يتاح من وسائل لتحديد المعنى))[١١]. هذا يعني أنه ليس الارتباط الاعتيادي بين الكلمات هو العلاقة الوحيدة الرابطة بينها وإنما هناك علاقات أخرى، كعلاقة التضاد، أوالتخالف، أوالتناقض، أوالتماثل، أوالتضايف، وغيرها، وهذه العلاقات هي المرادة هنا. وهي ـ كما هو واضح ـ تدخل جميعها ضمن المستوى الظاهر للنص، أو ما يسمى بالسبك المعجمي[١٢].

أما العلاقات المنطقية فهي: ((العلاقات الرابطة بين المفاهيم قد تكون واضحة ... [كالسببية] وقد تكون غير واضحة فتحتاج من القارئ جهداً في التفسير والتأويل واستخدام ما في مخزونه من معلومات عن العالم وغير ذلك، وهي علاقات لا تخضع للضبط والتحديد، وتعتمد اللسانيات النصية في الكشف عنها على إنجازات علم النفس المعرفي والمنطق وغير ذلك))[١٣].

ومن هنا توجهت الدراسة إلى التقابل بوصفه جزءاً من بنية النص؛ ولأنه قائم أساساً على علاقات المصاحبة المعجمية من تضاد، وتخالف، وتماثل، وتناقض، وغيرها؛ ولأنه يستبطن علاقات منطقية كثيرة أمدته بها علوم البلاغة الثلاثة. وبما أن السورة اشتملت فقط على تقابل المتضادين، وتقابل المتماثلين؛ بحثت الدراسة في هذين المفهومين لغة واصطلاحاً بصورة مقتضبة موجزة.

تقابل المتضادين:

الضد في اللغة: ((ضد الشيء، والمتضادان: الشيئان لا يجوز اجتماعهما في وقت واحد، كالليل والنهار))[١٤].

أمَّا في الاصطلاح: فيقول أبو الطيب اللغوي (ت: ٣٥١هـ): ((الأضداد: جمع ضد، وضد كل شيء: ما نافاه، نحو: البياض والسواد، السخاء والبخل، والشجاعة والجبن))[١٥]. مما لا يجوز اجتماعهما على موضوع واحد[١٦]، وهذا ما يسمى بـ (تقابل المتضادين).

تقابل المتماثلين:

التماثل في اللغة: من مَثَّلَ ((الميم والثاء واللام أصل صحيح يدل على مناظرة الشيء للشيء، وهذا مِثلُ هذا، أي: نظيره. والمِثل والمِثال في معنى واحد))[١٧].

أما اصطلاحاً: فهو ((أن تكون اللفظة واحدة باختلاف المعنى))[١٨]، أو مقابلة الشيء بما يماثله، إذ عدّه ابن حمزة العلوي (ت: ٧٤٥هـ) من أنواع الطباق وجعله على وجهين؛ الأول: مقابلة مفرد بمفرد، والثاني: مقابلة جملة بجملة[١٩].

بعد أن عرفنا ما هو المراد بالتقابل في الدراسات النصية، وبعد الاطلاع على مصطلحي تقابل المتضادين وتقابل المتماثلين، نأتي الآن إلى سورة مريم لنستكشف أثر هذين التقابلين في السورة الكريمة.

التقابل في سورة مريم:

تبدأ السورة بذكر رحمة الله جلّ وعلا التي نالت سيدنا زكريا (عليه السلام): ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيّاً ﴾[٢٠]، التي تقود إلى تقابل ألفاظها المماثلة لها ـ تقابل التماثل ـ سواء بذكر اسم من أسمائه تعالى وهو لفظ (الرحمن)، كما في استعاذة مريم به:﴿ قَالَتْ إِنّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً﴾[٢١]، أم بذكر لفظ (الرحمة) نفسه، كقول الوحي لمريم (عليها السلام): ﴿ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيّاً﴾[٢٢]، أو بصيغة شبه الجملة (من رحمتنا)، كما فيما وهبه الله تعالى لإبراهيم وذريته من رحمة، أو فيما وهبه لموسى من رحمة أيضاً، قال تعالى:﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعبدُونَ مِن دُونِ اللّهِ وَهَبنَا لَهُ إسحَقَ وَيَعقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلنَا نَبِيّاً۞وَوَهَبنَا لَهُم مِن رَّحمَتِنَا وَجَعلنَا لهُم لِسَانَ صِدقٍ عَلِيّاً۞وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً۞وَنَادينَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيمَنِ وَقَرَّبنَاهُ نَجِيّاً۞وَوَهَبنَا لَهُ مِن رَّحمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً﴾[٢٣]. فكل رحمة وردت في هذه الآيات مصدرها فيض إلهي واحد، أي أن الآيات جميعها حبكت بعلاقة عميقة هي(المشابهة).

ثم ذكر نعيم الجنة الذي لا يفارق دون أي شك رحمة الله تعالى، إذ قال عظُمت آلاؤه:﴿جَنَّاتِ عَدنٍ الّتي وَعَدَ الرَّحمَنُ عِبَادَهُ بِالغَيبِ إِنَّهُ كَانَ وَعدُهُ مَأتِيّاً﴾[٢٤]،﴿يَومَ نَحشُرُ

المُتَّقِينَ إلى الرَّحمَنِ وَفداً﴾[٢٥]، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحَاتِ سَيَجعَلُ لَهُمُ الرَّحمَنُ وُدّاً﴾[٢٦]. والملاحظ أن في هذه الآيات تدرج تنازلي، إذ أنه تعالى ذكر الجنة ـ وهي أعلى المراتب ـ ثم ذكر الحشر إلى الرحمن، أي إليها، بعدها أشار إلى أن الإيمان والعمل الصالح هو من يقود إلى مودة الله، أي محبته، وهي الجنة أيضاً، فكأن الكلام: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً، يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً، جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتياً). وهذا يعني أن العلاقة الغيابية التي حبكت النص على مستواه العميق هي (علاقة النتيجة بالسبب أو علاقة المعلول بالعلة)، أي أن الجنة هي نتيجة الإيمان والعمل الصالح الذي يقود بدوره إلى الحشر إلى الرحمن. ويلتقي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحَاتِ سَيَجعَلُ لَهُمُ الرَّحمَنُ وُدّاً ﴾[٢٧] مع الاستثناء في قوله جلّ وعلا: ﴿ إلاّ مَن تابَ وآمنَ وعَمِلَ صالحاً فَأُولئكَ يدخلونَ الجنَّةَ ولا يُظلمُونَ شيئاً﴾[٢٨]، لتؤكد الأخيرة على أن المراد بود الرحمن هو الجنة، الذي ينفيه السيد الطباطبائي في تفسيره[٢٩]. ففي الآيتين تقابل تماثلي جملة بجملة في أغلب مفرداتها كما هو واضح، أو ما يسمى بالسبك المعجمي بتكرار الألفاظ نفسها، بما يؤديه من ترابط للنص، مع دلالته على وحدة الإحالة.

كما أن الإحالة البعدية باسم الإشارة (أولئك) في آية الاستثناء، تربط الآيتين ببعضهما بإحالته إلى الاسم الموصول (الذين) في آية (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات)، فضلا عن دلالته على السبك النحوي بالاستبدال، أي استبدال اسم باسم، أي استبدال اسم الإشارة بالاسم الموصول، مع ما في الاسم الموصول من إحالة قبلية إلى اسم الإشارة، مما يؤكد الاستبدال. وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على نصية السورة وترابطها سبكاً وحبكاً.

الملاحظ أن لفظ الرحمن يكاد لا يفارق السورة بأكملها، حتى أن آيات العذاب والتوبيخ اشتملت على هذا اللفظ، كما في قول إبراهيم لأبيه: ﴿ يا أبتِ لا تعبُدِ الشَّيطانَ إنَّ الشَّيطانَ

كانَ للرحمنِ عَصياً۞يا أبتِ إني أخافُ أن يمسَّكَ عذابٌ منَ الرحمنِ فتكونَ للشيطانِ وليّاً﴾[٣٠]، أو في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَننزِعنَّ مِن كلِّ شِيعةٍ أيُّهم أشدُّ على الرحمنِ عِتِيّاً﴾[٣١]، و﴿ قُلْ مَن كانَ في الضلالةِ فَليَمدُدْ لهُ الرحمنُ مدّاً حتى إذا رأوا ما يوعَدُونَ إما العذابَ وإما الساعةَ فسيعلمونَ مَنْ هوَ شَرٌّ مَّكاناً وأضعفُ جُنداً﴾[٣٢]، و﴿ أفرأيتَ الذي كفرَ بآياتنا وقالَ لأُوتينَ مالاً وولداً۞أطَّلعَ الغيبَ أمِ اتخذَ عندَ الرحمنِ عهداً﴾[٣٣]، و﴿ وقالوا اتخذَ الرحمنُ ولداً* لقدْ جِئتمْ شيئاً إدّاً۞تكادُ السمواتُ يتفطَّرنَ منهُ وتنشقُّ الأرضُ وتخِرُّ الجبالُ هدّاً۞أنْ دَعَوا للرحمنِ ولداً۞وما ينبغي للرحمنِ أنْ يتخذَ ولداً۞إنْ كُلُ مَن في السمواتِ والأرضِ إلّا آتي الرحمنِ عبداً ﴾[٣٤]. وإنما اقترنت آيات العذاب والتوبيخ بلفظ الرحمن للتنبيه إلى أن رحمة الله شملت حتى العاصين والطغاة والمذنبين، فرحمته وسعت كل شيء[٣٥]، ورحمته سبقت غضبه، أي أنها ارتبطت بعلاقة غائبة استدعاها النص هي علاقة (الشمولية)، هذا من جهة، ومن جهة أخرى ليدخلوا بالاستثناء في قوله تعالى: ﴿ إلا مَن تابَ وآمنَ وعمِلَ صالحاً فأُولئكَ يدْخُلُونَ الجنَّةَ ولا يُظلمُونَ شيئاً﴾[٣٦]. وكل ذلك يثبت التماسك النصي في السورة.

وتقوم سورة مريم أيضاً على التدرج التضادي، والتدرج مسموح به في تقابل المتضادين، لأننا عندما نقول الأبيض فضده سيكون الأسود، وبالمقابل يوجد وسط بين الأبيض والأسود في مجال القول اللوني[٣٧]، قد يكون الرصاصي أو الرمادي.

من هنا يرى البحث أن السورة تقسّم الناس إلى ثلاث فئات[٣٨] متضادة حسب تدرجها، وهي: قوله تعالى: ﴿ أُولئكَ الَّذينَ أنعمَ اللّهُ عليهم مِّن النَّبيِّين مِن ذُريةِ آدمَ ومِمَّنْ حملنَا معَ نُوحٍ ومن ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ وإسرائيلَ ومِمَّن هدينَا واجتبينَا إذا تُتلى عليهم آياتُ الرحمنِ خرُّوا سُجَّداً وبُكيَّاً﴾[٣٩]، والقسم الثاني يأتي وراءهم مباشرة، وهو قوله تعالى: ﴿ فَخلفَ مِن بعدهِم خلفٌ أضاعوا الصلاةَ واتبعوا الشهواتِ فسوفَ يَلقونَ غيّاً﴾ [٤٠]. أما القسم الثالث حسب التدرج فهم

في قوله سبحانه: ﴿ إلّا مَن تابَ وآمنَ وعمِلَ صالحاً فأُولئكَ يَدخلونَ الجنَّةَ ولا يُظلمُونَ شيئاً ﴾[٤١]. أي أن أقسام الناس حسب ترتيب السورة هم على التوالي: أهل الاجتباء والهدى (الأنبياء والمرسلون)، وأهل الغي (الطغاة والعاصون)، وأهل الجنة (التائبون والمؤمنون).

ولهذا الترتيب أو التدرج بالخصوص دلالة تلقي بظلالها على المتلقي في أن الطغاة والعاصين (أهل الغي) لهم فرصة في التوبة والعدول من طريق الشر والضلال إلى طريق الخير والرشاد، بدلالة الاستثناء: ﴿ إلّا مَن تابَ وآمنَ وعمِلَ صالحاً فأُولئكَ يَدخلونَ الجنَّةَ ولا يُظلمُونَ شيئاً ﴾[٤٢]، فيدخلون في قسم التائبين والمؤمنين(أهل الجنة). إذن فقد ارتبطت هذه الآيات على المستوى الظاهر بالسبك المعجمي بعلاقة التضاد، فضلاً عن السبك النحوي بالضمائر (واو الجماعة) في (أضاعوا، واتبعوا، يلقون)، كل ذلك يحيل إحالة بعدية إلى الاسم الموصول (مَنْ) في (إلا من تاب...)، وفي ذلك أيضاً سبك معجمي آخر هو المصاحبة اللغوية بعلاقة الجزء بالكل، أي علاقة (إلا من تاب) وهو الجزء، بالكل وهو (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة ...). أما على مستوى العلاقات الدلالية الاستمرارية الاستبدالية المتحققة على المستوى الداخلي للنص أو العلاقة الغيابية، أو علاقات المعنى المنطقية فقد ارتبط النص بعلاقة (زمنية)، وهو ما يؤكده الاستثناء أيضاً، فالزمن هو الكفيل بتغيير أفكار ومبادئ الإنسان وموروثاته لكي يحدد وجهته وطريقه.

كما أن هذه الآيات بالذات قد قسمّت السورة إلى نصفين متضادين، فأنت إذا ما قرأت النصف الأول من السورة وجدتها تقابل بين أهل الاجتباء وأهل الغي، أي بين القسم الأول والقسم الثاني من السورة. أو بعبارة أوضح بين الأنبياء وأقوامهم. فزكريا مع الموالي من ورائه: ﴿ فخرجَ على قومهِ منَ المِحرابِ فأوحى إليهمْ أنْ سبِّحُوا بُكرةً وعشيّاً﴾[٤٣]. ومريم مع قومها: ﴿فَأتتْ بهِ قومها تحمِلُهُ قالوا يا مريمُ لقدْ جئتِ شيئاً فَرِيّاً﴾ [٤٤]. وابراهيم مع أبيه وقومه: ﴿ وأعتزلكم وما تدعُونَ مِن دونِ اللّهِ وأدعوا ربّي عسى ألّا أكونَ بِدعاءِ ربّي

شقيّاً﴾[٤٥]. ثم يذكر موسى واسماعيل وإدريس (عليهم السلام) وأحوالهم مع أهليهم فقط دون ذكر أقوامهم، وهي ترتبط بما قبلها من قصص، لوجود التماثل بهبة الرحمة بالأخ لموسى، والرضا لإسماعيل، والمكان العليّ لإدريس. كما أن الحبك بينها جميعاً واضح بعلاقة (المشابهة)، أي المشابهة بالإنعام والاجتباء دون غيرهم من الناس. علماً أنه ذكر أحوال زكريا ومريم وإبراهيم (عليهم السلام) مع أهليهم أول الأمر ثم انتقل إلى ذكر أقوامهم.

وإنما أطنب النص القرآني هنا؛ أي في ذكر أحوالهم مع أقوامهم، وأوجز هناك؛ أي في ذكر أحوالهم مع أهليهم؛ لوجود السبك المعجمي بتقابل التماثل بين زكريا ومريم وإبراهيم (عليهم السلام) في هبة الولد على الكبر عند زكريا وإبراهيم** (عليهما السلام)، وفي هبته دون أب عند مريم (عليها السلام)، والثلاثة حبكت على المستوى العميق للنص بعلاقة (التجانس)؛ أي التجانس بالإعجاز أو المعجزة[٤٦].

وترتبط قصة إبراهيم مع قصتي زكريا ومريم من جانب آخر بعلاقة غائبة على مستوى حبك النص هي (وحدة المفهوم وتعدد المصداق)، فما كان مفهوماً في قصة زكريا طبقه إبراهيم (عليه السلام)؛ وذلك في قوله لأبيه: ﴿ إذ قالَ لأبيهِ يا أبتِ لِمَ تعبُدُ ما لا يسمعُ ولا يُبصرُ ولا يُغني عنكَ شيئاً۞يا أبتِ إني قدْ جاءني منَ العلمش مَا لمْ يأتِكَ فاتبعني أهدكَ صِراطاً سَوِيّاً۞يا أبتِ لا تعبُدِ الشيطانَ إنَّ الشَّيطانَ كان للرحمنِ عصيّاً۞يا أبتِ إني أخافُ أنْ يمسَّكَ عذابٌ مِنَ الرحمنِ فتكونَ للشَّيطانِ وليّاً۞قالَ أراغبٌ أنتَ عن آلهتي يا إبراهيمُ لئن لَّمْ تنتَهِ لأرجُمنَّكَ واهجُرني مَليّاً۞قالَ سلامٌ عليكَ سأستغفرُ لكَ ربِّي إنّهُ كانَ بي حفيّاً۞وأعتزلُكُم ومَا تدعُونَ مِن دونِ اللّه وأدعوا ربِّي عسى ألّا أكونَ بدُعاءِ ربِّي شقيّاً ﴾[٤٧]، فهو تطبيق لقوله تعالى في يحيى وعيسى (عليهما السلام):﴿ وبرّاً بوالديهِ ولمْ يكُنْ جبّاراً عصيّاً﴾ [٤٨]، و﴿ وبرّاً بوالدتي ولمْ يجعلني جبّاراً شقيّاً﴾[٤٩]، في البرّ بأبيه، وواحد في المصداق مع قوله تعالى حكاية عن عيسى (عليه السلام): ﴿ فناداها مِن تحتها ألَّا تحزني

قدْ جعلَ رَبُّكِ تحتكِ سريّاً۞وهُزي إليكِ بجذعِ النَّخلةِ تُساقِطْ عليكِ رُطباً جَنيّاً۞فكلي واشربي وقَرِّي عيناً فإمّا تَرينَّ منَ البشرِ أحداً فقولي إني نذرتُ للرحمنِ صوماً فلنْ أُكلِّمَ اليومَ إنسيّاً﴾[٥٠]، في مخاطبته لأبيه بالقول اللين الرحيم.

كما أن العزلة التي اختارها إبراهيم (عليه السلام):﴿ وأعتزلُكُم ومَا تدعُونَ مِن دونِ اللّه وأدعوا ربِّي عسى ألّا أكونَ بدُعاءِ ربِّي شقيّاً﴾[٥١] تقابل العزلة التي اختارها زكريا (عليه السلام) على مستوى ظاهر النص تقابلاً مماثلاً: ﴿ ذِكرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيّاً۞إذْ نادى رَبَّهُ نداءً خَفيّاً۞قالَ رَبِّ إني وَهنَ العظمُ مني واشتعلَ الرأسُ شيباً ولمْ أكُن بِدعائكَ رَبِّ شقيّاً ﴾[٥٢]، وتقابل الانتباذ والحجاب الذي اتخذته مريم من دون قومها: ﴿ واذْكُرْ فِي الكِتَابِ مَرْيَمَ إذِ انتَبَذَتْ مِن أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً۞فاتَّخذتْ من دُونِهِمْ حِجاباً فأرسلنَا إليها رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لها بشراً سويّاً﴾[٥٣]،[٥٤]. إذا ما عرفنا بأن الحجاب الذي اتخذته مريم هو حجاب من الجدران اتخذته من دون أهلها لتعتكف للعبادة[٥٥]. وجميعها قد ارتبطت بعلاقة غائبة على مستوى حبك النص هي علاقة (الهيأة أو الكيفية)، فجميعهم في حالة دعاء وعبادة واعتكاف.

وإذا ما قرأت النصف الثاني بعد هذه الآيات رأيتها تقابل بين أهل الغي وأهل الجنة، أي بين القسم الثاني والقسم الثالث من السورة، أو بعبارة أدق بين الطغاة والمؤمنين، كمقابلته بين المتقين والظالمين في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنجي الّذينَ اتَّقوا ونَذرُ الظالمينَ فيها جِثيّاً﴾ [٥٦]. وقابل بين الذين كفروا والذين آمنوا في قوله سبحانه:﴿ وإذَا تُتلى عليهمْ آياتُنا بيناتٍ قالَ الَّذينَ كفروا للَّذينَ آمنوا أيُّ الفريقينِ خيرٌ مَقاماً وأحسنُ نديّاً ﴾[٥٧]. ثم أهل الضلالة وأهل الهدى في قوله جلّ وعلا: ﴿ قُلْ مَن كانَ في الضلالةِ فَليَمدُدْ لهُ الرحمنُ مدّاً حتى إذا رأوا ما يوعَدُونَ إما العذابَ وإما الساعةَ فسيعلمونَ مَنْ هوَ شَرٌّ مَّكاناً وأضعفُ جُنداً۞ويَزيدُ اللّهُ الَّذينَ اهتدوا هُدىً والباقياتُ الصَّالحاتُ خيرٌ عندَ رَبِّكَ ثَواباً وخيرٌ مَردّاً﴾[٥٨]. وقابل بين المتقين والمجرمين في قوله عزّ من قال: ﴿ يومَ نحشُرُ المُتَّقينَ إلى الرحمنِ وفداً۞ ونسُوقُ

المُجرمينَ إلى جهنَّمَ وِرداً ﴾[٥٩]. بعدها قابل أيضاً بين المتقين وبين قوم شديدي العداوة لله تعالى (لُدّاً)، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فإنَّما يسَّرناهُ بلسانِكَ لِتُبشِّرَ بهِ المُتَّقينَ وتُنذِرَ بهِ قَوماً لُدّاً﴾[٦٠]. وكأن القسم الثاني يقع فصلاً بين القسم الأول (أهل الاجتباء) والقسم الثالث (أهل الجنة) وفي ذلك دلالة على ثبوت الصراع واستمراريته على مدى الأزمنة والعصور بين هذه الأقسام الثلاثة أو الفئات الثلاث من الناس.

إنّ جميع هذه الآيات كما هو واضح قد سبكت بعلاقة معجمية على مستوى ظاهر النص هي التضاد، وعلى المستوى الداخلي للنص فقد ارتبطت الآيات بعلاقات غيابية استمرارية يمكن أن نسمّيها بعلاقة (المفارقة)، من خلال اختلاف المصير، أو من خلال حسن الخاتمة وسوء العاقبة...ألخ. يؤيدها ما ختمت به السورة: ﴿ وكمْ أهلكْنا قبْلَهُم مِن قَرنٍ هلْ تُحِسُّ منهُم مِّن أحدٍ أوْ تَسمَعُ لهُمْ رِكزاً﴾[٦١].

الهوامش

---

* هناك كثير من الدراسات التي تناولت مفهوم التقابل لغة واصطلاحاً أغنتنا من البحث فيهما، وهي: ظاهرة التقابل الدلالي في اللغة العربية، رسالة ماجستير، والتقابل الدلالي في الحديث النبوي الشريف دراسة بلاغية، اَطروحة دكتوراه، والتقابل الدلالي في نهج البلاغة، رسالة ماجستير، وأسلوب التقابل في الربع الأخير من القرآن الكريم، رسالة ماجستير، وأساليب البديع في نهج البلاغة، اَطروحة دكتوراه.

[١] ينظر: العين، الفراهيدي: ١٦٦/٥، ولسان العرب، ابن منظور:٢١/١١، والقاموس المحيط، الفيروزآبادي:٩٦٤، و المحكم والمحيط الأعظم في اللغة، ابن سيده:٦/ ٢٦٣، مادة (ق. ب. ل)

[٢] الصحاح في اللغة: ٢٥٥، ولسان العرب: ٢١/١١، المادة نفسها.

[٣] نقد الشعر، قدامة بن جعفر:١٤١.

[٤] ظاهرة التقابل في علم الدلالة، مجلة آداب المستنصرية: ١٥.

[٥] ينظر: الإيضاح، الخطيب القزويني: ٢٦٥.

[٦] ينظر: تقابلات النص وبلاغة الخطاب نحو تأويل تقابلي:١٧٢-١٧٦.

[٧] ينظر: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، مجلة علوم اللغة: ٦-٧.

[٨] أما بقية المعايير فهي: القصد(هدف النص)، والقبول، والإعلامية (الإخبار)، ورعاية الموقف (المقام)، والتناص. (ينظر: النص والخطاب والإجراء: ١٠٣-١٠٥، وينظر: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق ـ مجلة علوم اللغة ـ العدد:٢: ٧).

[٩] ينظر: النص والخطاب والإجراء: ١٠٣، وإشكالات النص: ٢٢٣، ومدخل إلى علم اللغة النصي: ٩٣-٩٥، ولسانيات النص: ١٦-٢٥.

[١٠] علم الدلالة: ٧٤.

[١١] مدخل إلى علم اللغة النصي: ١٥٥.

[١٢] ينظر: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية: ١٠٧-١٠٨.

[١٣] المصدر نفسه: ١٤٢.

[١٤] معجم مقاييس اللغة، ابن فارس: ٥٧٤، مادة (ض.د.د).

[١٥] الأضداد في كلام العرب، أبو الطيب اللغوي: ٣٣.

[١٦] ينظر: المنطق: ٤٨/١.

[١٧] معجم مقاييس اللغة: ٩٣٨، مادة (م.ث.ل).

[١٨] العمدة، ابن رشيق القيرواني: ٣٢١/١.

[١٩] ينظر: الطراز، ابن حمزة العلوي: ٢/٢٠١-٢٠٢.

[٢٠] مريم: ٢.

[٢١] مريم: ١٨.

[٢٢] مريم: ٢١.

[٢٣] مريم: ٤٩-٥٣.

[٢٤] مريم: ٦١.

[٢٥] مريم: ٨٥.

[٢٦] مريم: ٩٦.

[٢٧] مريم: ٩٦.

[٢٨] مريم: ٦٠.

[٢٩] ذهب السيد محمد حسين الطباطبائي في تفسيره إلى أن المراد بالود هو ((المودة والمحبة، ففي الآية وعد جميل منه تعالى أنه سيجعل للذين آمنوا وعملوا الصالحات مودة في القلوب، ولم يقيده بما بينهم أنفسهم ولا بغيرهم ولا بدنيا ولا بآخرة أو جنة، فلا موجب لتقييد بعضهم ذلك بالجنة، وآخرين بقلوب الناس في الدنيا، إلى غير ذلك))، تفسير الميزان: ١٤/٢١٩.

[٣٠] مريم: ٣٣-٤٥.

[٣١] مريم: ٦٩.

[٣٢] مريم: ٧٥.

[٣٣] مريم: ٧٨.

[٣٤] مريم: ٨٨-٩٣.

[٣٥] قال تعالى: ﴿ قالَ عَذابي أُصيبُ بهِ مَن أشاءُ ورحمتي وَسِعتْ كُلَّ شيءٍ- الأعراف: ١٥٦﴾.

[٣٦] مريم: ٦٠.

[٣٧] ينظر: المنطق الصوري: ١٤٠-١٤١.

[٣٨] ينظر: تفسير الميزان: ١٤/١٧٥.

[٣٩] مريم: ٥٨.

[٤٠] مريم: ٥٩.

[٤١] مريم: ٦٠.

[٤٢] مريم: ٦٠.

[٤٣] مريم: ١١.

[٤٤] مريم: ٢٧.

[٤٥] مريم: ٤٨.

**ودليله قوله تعالى في سورة هود: ﴿ وامرأتُهُ قائمةٌ فضَحِكتْ فَبشرناها بإسحاقَ ومِن وراءِ إسحاقَ يَعقوبَ* قالتْ يا ويلتي ءألدُ وأنا عَجوزٌ وهذا بعلي شيخاً إنَّ هذا لشيءٌ عَجيبٌ- هود: ٧١-٧٢﴾.

[٤٦] ينظر: التفسير البنائي: ٣/٨٧-٨٨.

[٤٧] مريم: ٤٢-٤٨.

[٤٨] مريم: ١٤.

[٤٩] مريم: ٣٢.

[٥٠] مريم: ٢٤-٢٦.

[٥١] مريم: ٤٨.

[٥٢] مريم:٢-٤.

[٥٣] مريم: ١٦-١٧.

[٥٤] ينظر: التفسير البنائي: ٨٨/٣.

[٥٥] ينظر: جامع البيان على تأويل آي القرآن: ٦٠/١٦، وتفسير الميزان: ١٨٧/١٤.

[٥٦] مريم: ٧٢.

[٥٧] مريم: ٧٣.

[٥٨] مريم: ٧٥-٧٦.

[٥٩] مريم: ٨٥-٨٦.

[٦٠] مريم: ٩٧.

[٦١] مريم: ٩٨.

الخاتمة

درسنا في هذا البحث سورة مريم من وجهة نظر المنهج النصي، بما يشكله التقابل النصي من بنية متماسكة يفرض سطوته على النص بأكمله، ليجعله مترابطاً متماسكاً سبكاً وحبكاً.

وبعد هذا السفر القصير في سورة مريم، وبعد وصولنا إلى خاتمة الطريق، عرفنا أن لكلّ شيء مركزاً، ومركز هذه السورة المباركة هو قوله تعالى: ﴿أُولئكَ الّذينَ أنعمَ اللّهُ عليهِم منَ النَّبيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادمَ ومِمَّنْ حملنَا مَعَ نُوحٍ ومِن ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ وإسرائيلَ ومِمَّن هدينَا واجتبينَا إذا تُتلى عليهِم ءاياتُ الرحمنِ خرُّوا سجَّداً وبُكيّاً* فَخلفَ مِن بعدهِم خلفٌ أضاعوا الصلاةَ واتبعوا الشهواتِ فسوفَ يَلقونَ غيّاً* إلاّ مَن تابَ وآمنَ وعَمِلَ صالحاً فَأُولئكَ يدخلونَ الجنَّةَ ولا يُظلمُونَ شيئاً﴾، وجميع آيات السورة ترتبط بهذا المركز، ولاسيّما آية الاستثناء.

وتتقابل هذه الآيات أيضاً مع خاتمة السورة، وهي قوله جلّ وعلا: ﴿ إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحَاتِ سَيَجعَلُ لَهُمُ الرَّحمَنُ وُدّاً* فإنَّما يسَّرناهُ بلسانِكَ لِتُبشِّرَ بهِ المُتَّقينَ وتُنذِرَ بهِ قَوماً لُّدّاً* وكمْ أهلكْنا قبْلَهُم مِن قَرنٍ هلْ تُحِسُّ منهُم مِّن أحدٍ أوْ تَسمَعُ لهُمْ رِكزاً﴾، فكأنما آية الإنعام تقابل آية التيسير، فهي تخاطب النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله)، وهو من أهل الإنعام والاجتباء، وآيات الرحمن هو ما يسّره الله تعالى بلسان نبيه. وآية من أضاع الصلاة واتبع الشهوات مع آية الإهلاك. وآية الاستثناء مع آية الذين آمنوا وعملوا الصالحات، تكاد لا تخالفها حرفاً بحرف، وكلمة بكلمة.

والتقابل في ذلك كله هو تقابل المتماثلين بعلاقة غيابية يستحضرها الذهن هي (المشابهة). وفي حقيقة الأمر يكاد يكون هذا التقابل؛ أي تقابل المتماثلين هو المسيطر على

سورة مريم من أولها إلى آخرها، وإن اختلفت في خاتمة من آمن ومن اتبع الشهوات، فقد كان التقابل فيما بينهما بالأضداد. ليوصلنا تقابل المتماثلين بذلك إلى الآيات المركز في السورة، وهي آية الاجتباء، وآية الخلف المضيّع، وآية الاستثناء (التائبين)، كما تبيّن.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- إشكالات النص (دراسة لسانية نصية)، الدكتور عبد الكريم بن جمعان، النادي الأدبي العربي، الرياض، والمركز الثقافي العربي، بيروت، ط/١، ٢٠٠٩م.
- الأضداد في كلام العرب، أبو الطيب اللغوي (عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي، ت: ٣٥١هـ)، تحقيق: عزة حسن، ط/١، دار طلاس، دمشق، ١٩٩٦م.
- الإيضاح في علوم البلاغة(المعاني والبيان والبديع)، الخطيب القزويني (جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد بن محمد، ت: ٧٣٩هـ)، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.
- البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، الدكتور جميل عبد المجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، د.ط، ١٩٩٨م.
- التفسير البنائي للقرآن الكريم، الدكتور محمود البستاني، مجمع البحوث الإسلامية، مشهد، إيران، ط/١، ١٤٢٤هـ.
- تقابلات النص وبلاغة الخطاب نحو تأويل تقابلي، محمد بازي، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط/١، ١٤٣١هـ ، ٢٠١٠م.
- جامع البيان على تأويل آي القرآن، ابن جرير (أبو جعفر محمد بن جرير، ت: ٣١٠هـ)، د. تحقيق، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط/٣، ١٩٦٨م.
- الصحاح في اللغة والعلوم (تجديد صحاح العلامة الجوهري، إسماعيل بن حماد، ت: ٣٩٣هـ ، المصطلحات العلمية والفنية للمجامع والجامعات العربية)، تقديم: الشيخ عبد الله العلايلي، إعداد: نديم مرعشلي، وأُسامة مرعشلي، دار الحضارة العربية، بيروت، لبنان، ط/١، ١٩٧٤م.

- الطراز، ابن حمزة العلوي (الإمام يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني، ت: ٧٤٥هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، ط/١، ١٤٢٣هـ ، ٢٠٠٢م.
- علم الدلالة، الدكتور أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط/٥، ١٩٩٨هـ.
- العمدة (في محاسن الشعر وآدابه ونقده)، ابن رشيق القيرواني (أبو علي الحسن بن رشيق الأزدي، ت: ٤٥٦هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط/٥، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.
- العين، الفراهيدي (أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد، ت: ١٧٥هـ)، تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي، والدكتور إبراهيم السامرائي، دار الرشيد، بغداد، العراق، د.ط ، ١٩٨٢م.
- القاموس المحيط، الفيروزآبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب، ت: ٨١٧هـ)، إعداد: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط/٢ ، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.
- لسان العرب، ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المصري، ت: ٧١١هـ)، تصحيح: أمين محمد عبد الوهاب، ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي ، بيروت، لبنان، ط/٣، د. ت.
- لسانيات النص (مدخل إلى انسجام الخطاب)، محمد خطابي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط/١، ١٩٩١م.
- المحكم والمحيط الأعظم في اللغة، ابن سيده (علي بن إسماعيل، ت: ٤٥٨هـ)، تحقيق: الدكتور مراد كامل، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط/١، ١٣٩٢هـ، ١٩٧٢م.

- مدخل الى علم اللغة النصي، فولفجانج هاينه من، وديتر فيهفيجر، ترجمة: الدكتور فالح ابن شبيب العجمي، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية، د.ط، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م.
- معجم مقاييس اللغة، ابن فارس (أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، ت: ٣٩٥هـ)، تحقيق: الدكتور محمد عوض مرعب، وفاطمة محمد أصلان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ط، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.
- المنطق، الشيخ محمد رضا المظفر، دار المعارف، بيروت، لبنان، د.ط، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.
- المنطق الصوري (منذ أرسطو حتى عصورنا الحاضرة)، الدكتور علي سامي النشار، دار المعرفة الجامعية، مصر، د.ط، ٢٠٠١م.
- الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة السيدة معصومة، قم، إيران، ط/١، ١٤٢٦هـ.
- النص والخطاب والإجراء، تأليف: روبرت دي بوجراند، ترجمة: الدكتور تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط/١، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.
- نقد الشعر، قدامة بن جعفر (أبو الفرج، ت: ٢٢٧هـ)، تحقيق: الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.

الرسائل والأطاريح:

- أساليب البديع في نهج البلاغة (دراسة في الوظائف الدلالية والجمالية)، خالد كاظم حميدي الحميداوي، اطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة الكوفة، ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م.

- أسلوب التقابل في الربع الأخير من القرآن الكريم (دراسة أسلوبية)، عماري عز الدين، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الحاج لخضر باتنة، الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية،٢٠١٠م.
- التقابل الدلالي في الحديث النبوي الشريف (دراسة بلاغية في كتاب اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان لواضعه محمد فؤاد عبد الباقي، أسماء سعود ادهام خطاب، اطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة الموصل، ٢٠٠٥م.
- التقابل الدلالي في نهج البلاغة، تغريد عبد فلحي الخالدي، رسالة ماجستير، كلية التربية للبنات، جامعة الكوفة، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

الدوريات:

- ظاهرة التقابل الدلالي في اللغة العربية، عبد الكريم محمد حافظ العبيدي، رسالة ماجستير، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، ١٤١٠هـ، ١٩٨٩م.
- ظاهرة التقابل في علم الدلالة، الدكتور أحمد نصيف الجنابي، مجلة أداب المستنصرية، الجامعة المستنصرية، بغداد، العراق، العدد/١٠، ١٩٨٤م.
- علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق (الخطابة النبوية نموذجاً)، د.م، مجلة علوم اللغة، المجلد/٩، العدد/٢، ٢٠٠٦م.